5. الدراسات الثقافية في المدرستين الأنجلوسكسونية والفرانكوفونية

يعد الاتجاه الفرنسي من أبرز التيارات الفكرية التي تناولت المواضيع التي تندرج ضمن ما يعرف بالدراسات الثقافية، وقد حمل خصوصية فكرية جعلته مميزا عن الدراسات الثقافية الانجلوسكسونية.

تشترك كل من المدرستين الانجلوسكسونية والفرنسية في مجال الدراسات الثقافية، باهتمامها بتحليل السلطة والهيمنة داخل المجتمع، ونقد الثقافة السائدة وتجاوز الفصل بين الثقافة الرفيعة والثقافة الشعبية، غير أن المنطلقات الفكرية لكل منها تختلف عن الأخرى.

فقد نشأت الدراسات الثقافية الإنجليزية في إطار أكاديمي مؤسساتي، تستند الى الفكر الماركسي وتتخذ طابعا سوسيولوجيا واعلاميا. اهتمت بالثقافة الشعبية، وتعتبر الثقافة ممارسة يومية وتعبير عن نمط الحياة. تتجه الدراسات الثقافية الانجلوساكيونية الى تحليل السلطة والهيمنة والايديولوجيا في المجتمع الرأسمالي، وتعتمد النقد السياسي وتحليل الخطاب الإعلامي. كما تستند الى الدراسات الميدانية حول جمهور وسائل الاعلام خاصة بعد تطور دراسات جمهور وسائل الاعلام وتطور أدوات جمع البيانات الميدانية.

في حين لا تنضوي المدرسة الفرنسي تحت أي مؤسسة وانما هي عبارة عن تيار فكري يقوده مجموعة من المفكرين، يقوم على التحليل الفلسفي والسيميائي، ويستمد مرتكزاته من عدة مدارس.

والاتجاه الفرنسي لم ينطلق من سؤال الثقافة الشعبية، بل من سؤال الخطاب الثقافي وعلاقته بالسلطة، فهو يطرح أسئلة حول:

*كيف تنتج المعاني داخل أنظمة معرفية وسلطوية؟

*كيف تعمل الخطابات؟

*كيف تتجسد السلطة في المعرفة والمؤسسات والرموز؟

الأسئلة التي استثارها مفكري التيار الفرنسي، جعلت المدرسة الفرنسية تهتم أساسا بتحليل النصوص تحليلا سيميائيا عميقا، وتهتم بالبنية اللغوية والرمزية لهذه النصوص، الى جانب تحليل أنظمة الخطاب والمعرفة، وتدرس تجسد السلطة وممارستها من خلال النص والخطاب.

التيارات الفكرية للمدرسة الفرنسية:

***البنيوية:**

انطلقت من اللسانيات وانتقلت الى الانثروبولوجيا والنقد الأدبي. وهي تركز على تحليل بنية النصوص.

ترى البنيوية أن المعنى لا يفهم من العناصر المنفردة بل من العلاقات داخل البنية. فالمعنى ينتج عبر علاقات داخل النسق.

يرى المفكرون البنيويون الذين اهتموا بالدراسات الثقافية وعلى رأسهم **رولان بارت**، يرون بأن الثقافة عبارة عن نظام رمزي يمكن تحليله كبنية (تحليل البنى الرمزية). فهم في دراستهم للثقافة اهتموا بتحليل نصوصها داخليا باعتبارها نسق من العلامات التي تحمل دلالات تولد المعاني التي تكون كامنه بداخلها.

يتجه **رولان بارت** الى ان تحليل النصوص يكون على مستويين، يمثل المستوى الأول النظام اللغوي العادي، بينما يمثل المستوى الثاني التحليل السيميائي الذي يولد دلالات جديدة، وقد انطلق **بارت** من لسانيات دوسوسير الذي حلل العلامات اللغوية وفق ثنائية الدال الذي يمثل الصورة الصوتية او المرئية، والمدلول الذي يمثل المفهوم، وهو المستوى التحليلي الذي اعتبره **رولان بارت** يمثل النظام اللغوي العادي (العلامة= دال + مدلول)، لينتقل الى المستوى الثاني الذي يمثل التحليل السيميائي حيث تتحول العلامة الى دال جديد وتربط بمدلول أيديولوجي أوسع (هنا نتحدث عن التمثل)، وقد طبق ذلك في تحليله للأسطورة والرموز في الحياة اليومية، حيث يرى ان الحياة اليومية مشبعة بالأساطير، والاسطورة عبارة عن آلية ثقافية تحول المعاني التاريخية الى حقائق طبيعية، وتمثيل هذه الأسطورة يكون عبر البناء الرمزي بحيث يتم إعادة بناء الواقع داخل نظام دلالي يخدم رؤية معينة.

ومن ثم فالإعلام لا ينقل الواقع بل يعيد ترميزه عن طريق التمثل أي إعادة بناء رمزية للواقع (اختيار ما يظهر وما يخفى) وتنظيم المعنى وفق أفق أيديولوجي. فالإعلام هنا يصنع نسخة دلالية من الواقع، وعليه يمكن تحليل الخطاب الإعلامي كبنى دلالية وأنظمة رمزية.

انطلاقا من هذا تم تأسيس منهج نقدي لتحليل الاعلام كنسق دلالي.

***ما بعد البنيوية:**

حدثت قطيعة مع البنيوية الصارمة، وتم الانتقال من تحليل البنية الى تحليل الخطاب، ونقل الاهتمام من "**المعنى الموجود داخل النص**" الى "**شروط انتاج النص**".

ترى المدرسة ما بعد البنيوية أن الثقافة ليست بنية ثابتة، بل شبكة من الخطابات تنتج ما يعتبر طبيعيا أو مشروعا. كما ترى أنه لا توجد معرفة محايدة، فكل معرفة مرتبطة بعلاقات سلطة.

يعد **ميشال فوكو** من أبرز المفكرين ما بعد البنيويين الذين اهتموا وأثَّروا في الدراسات الثقافية، وهو يرى أن المعرفة ترتبط دائما بالسلطة ولا توجد خارج علاقات القوة، فالسلطة تنتج المعرفة، والمعرفة تعزز السلطة. لذا اهتم بتحليل الخطاب الذي يعد حسبه وسيلة لممارسة السلطة وإنتاج المعرفة.

يتجه **فوكو** الى أن الحقيقة هي نتاج أنظمة خطابية فكل مجتمع ينتج نظام حقيقة عبارة عن مجموعة من: الخطابات المقبولة، مؤسسات تمنح الشرعية، آليات تميز بين الصحيح والخاطئ.

أما السلطة بالنسبة له فهي ليست مركزية ولا حكرا على الدولة، بل هي شبكة علاقات منتشرة في المجتمع تنتج الحقيقة والذوات والمعايير.

ويقول أن السلطة: هي الحضور الدائم في كل خطاب بوصفها ذات صلة وثيقة جدا بعلاقات العنف والصراع والهيمنة، ولها علاقة مهمة بالكلام، لذلك تسعى بشكل دائم الى حماية الكلمة لضمان امتلاك الدلالة وتوجيهها حسب السياق ومحاولة قمعها اذا تمردت أو خرجت عن الخطاب السلطوي المهيمن.

بمعنى أن السلطة هي التي تنتج الرموز وتمنحها دلالاتها، وتسعى الى نشرها وترسيخها حتى تتحول الى حقيقة مقبولة ومشروعة. وتكون هذه الرموز ودلالاتها مجرد انعكاس لأيديولوجية السلطة التي انتجتها، لذا تحاول هذه السلطة وبشكل دائم احتكار الكلام أو الخطاب حتى تتحكم في انتاج الرموز والمعاني داخل المجتمع، ومنه ممارسة الهيمنة عن طريق التحكم في دلالات وسياقات الخطاب.

بناء على ذلك يرى **فوكو** أن الخطاب ليس مجرد كلام، بل نظام ينتج المعرفة والمعنى. وهو آلية ضبط يحدد ما هو مقبول، ما هو مرفوض، وما هو مستبعد.

فالخطاب أداة ووسيلة لقوة تتبناها مجموعة افراد داخل المجتمع الإنساني في لحظة تاريخية، وهذا الخطاب يكتسب قوته من خلال قوة وهيمنة الطبقة الاجتماعية التي تتبنى ذاك الخطاب وتطرحه بصفته خطابا رسميا. فيتحول السؤال من هل ما قيل في الخطاب صحيح؟ الى السؤال حول: كيف أصبح ما قيل في الخطاب يعتبر صحيحا؟

***التفكيكية:**

تقوم تفكيكية **جاك دريدا** على تحليل النصوص والخطابات من خلال كشف التناقضات والبنى الخفية التي يقوم عليها المعنى. فهي لا تعترف بوجود المعنى الثابت، فقد زعزعت مركزية الخطاب الغربي الذي يقول بوجود مركز ثابت للحقيقة والمعنى، وأن المعنى حاضر وثابت ويمكن الوصول اليه مباشرة. فالتفكيكية ترى أنه لا يوجد تفسير نهائي للنص وان المعنى متعدد ومتحول، لذا دعت الى إعادة قراءة النصوص الثقافية من خلال:

*البحث عن التناقضات الداخلية في النص، فهي تعتبر ان النصوص تحمل تناقضات داخلية.

*الكشف عن الافتراضات غير المعلنة.

*تحليل الثنائيات التي يقوم عليها الخطاب، اذ يرى **دريدا** أن الثنائيات (مركز/ هامش) (عقل/ عاطفة) (حديث/ قديم) (رجل/ امرأة)...الخ قابلة للتفكيك، وهي تمنح عادة القوة لطرف على حساب طرف آخر فيكون دائما هناك طرف مهيمن وطرف مهمش، غير ان هذه الثنائيات غير مستقرة وقد تنقلب العلاقة بينها أحيانا، ووظيفة التفكيكية كشف هذه الحالة من عدم الاستقرار.

*اظهار ان النص يمكن ان ينتج معاني متعددة.

***سوسيولوجيا الحقول والممارسة:**

طرح **بيار بورديو** نموذجا يربط البنية الاجتماعية ويرفض الفردانية الليبرالية. اذ قدم تصورا علائقيا للمجتمع واعتبره شبكة من الحقول المتصارعة (الحقول بمعنى مجموعات او جماعات اجتماعية).

اهتم **بورديو** بتحليل طرق انتاج السلطة والهيمنة داخل فضاءات اجتماعية متعددة عبر أشكال غير مرئية من الرأسمال خاصة الرأسمال الرمزي. حيث يرى ان المجتمع عبارة عن مجموعة من الحقول المترابطة ببعضها البعض، والتي تتنافس فيما بينها من أجل ممارسة الهيمنة، وتحليل العلاقات بين الحقول تكشف نمط السلطة والهيمنة الممارسة. كما ان السلطة والهيمنة تمارس وتتجسد حتى

على مستوى كل حقل، وحسب بورديو فإن السلطة والهيمنة تعتمد على اشكال الرأسمال المختلفة في تشكلها والاعتراف بها. وطرح عدة أفكار لتحليل المجتمع تحليلا بنيويا علائقيا، يتمثل أهمها في:

الرأسمال الثقافي: ويتمثل في الشهادات، المعرفة، الذوق، الكفاءة اللغوية ...الخ أي مجمل المعارف والمهارات التي يملكها الفرد.

الرأسمال الرمزي: يتمثل في الاعتراف والشرعية والهيبة التي ينظر بها الى شخص أو مؤسسة أي الشكل المعترف به اجتماعيا.

السلطة الرمزية: هي قدرة الفاعل على فرض رؤيته للعالم بوصفها طبيعية ومشروعة.

الحقيقة الاجتماعية: قابلة للكشف علميا عبر تحليل البنى الموضوعية (الحقول) وعلاقات الرأسمال.

السلطة: تتجسد في الحقول، ترتبط بتوزيع الرأسمال، وتمارس عبر الهيمنة الرمزية. تعمل السلطة حين يُقبل النظام الاجتماعي بوصفه طبيعيا.